موجز في التّفسير

سورة الجمعة

سليمان بيضون

* السّورة الثانية والسّتّون في ترتيب سوَر المُصحف الشّريف، نزلت بعد سورة «الصفّ».
* سُمّيت بـ «الجمعة» لقوله تعالى: ﴿..إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ..﴾ في الآية التاسعة منها.
* آياتها إحدى عشرة، وهي مدَنيّة، مَنْ قرأها أُعطيَ عشرَ حسنات بعدد مَن أتى الجمعة، وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين، كما في النبويّ الشريف.

في ما يلي موجز في تفسير السّورة المباركة اخترناه من تفاسير: (الميزان) للعلّامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، و(الأمثل) للمرجع الدّينيّ الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، و(نور الثّقلين) للشّيخ عبد عليّ الحويزيّ.

ورد في الروايات تأكيدُ قراءة سورة (الجمعة) في صلاة الجمعة، وأفتى العلماء باستحباب قراءتها في الركعة الأولى من العشاءَين ليلة الجمعة، والصبح والظهرَين من يومها.

محتوى السورة

«تفسير الميزان»: غرض السورة هو الحثُّ البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب أمرها، فهي من شعائر الله المعظّمة التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاحُ أُخراهم ودنياهم، وقد سلك تعالى إلى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه بما منّ على قوم أمّيّين برسول منهم أمّيّ، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم بصالحات الأعمال والزاكيات من الأخلاق، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فيحمّلهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل، هم ومَن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين، فليحملوا ذلك أحسن الحمل، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حُمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوا معارفها وأحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفاراً.

ثمّ تخلّص [السورة] إلى الأمر بترك البيع والسعي إلى ذكر الله إذا نودِي للصّلاة من يوم الجمعة، وقرّعهم على ترك النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم قائماً يخطب، والانفضاض والانسلال إلى التجارة واللهو، وذلك آية عدم تحمّلهم ما حُمّلوا من معارف كتاب الله وأحكامه.

«تفسير الأمثل»: تدور السورة حول محورَين أساسيَّين:

الأوّل: التوحيد وصفات الله، والهدف من بعثة الرسول، ومسألة المعاد.

الثاني: الأثر التربويّ لصلاة الجمعة، وبعض الخصوصيّات المتعلّقة بهذه العبادة العظيمة.

ولكن يمكن أن نُجمل الأبحاث التي وردت في هذه السورة المباركة بالنقاط التالية:

١ - تسبيح كافّة المخلوقات.

٢ - الهدف التعليميّ والتربوي من بعثة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم.

٣ - تحذير المؤمنين وتنبيههم من مغبّة الوقوع في الانحراف الذي وقع فيه اليهود فابتعدوا عن جادّة الصّواب والحقّ.

٤ - إشارة إلى قانون الموت العامّ والشامل الذي يُمثّل المعبرَ إلى عالَم البقاء والخلود.

٥ - تأكيد أداء فريضة صلاة الجمعة، وحثّ المؤمنين على تعطيل العمل والكسب من أجل المشاركة فيها.

ثواب تلاوتها

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «..وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ الجُمُعَةِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بِعَدَدِ مَنْ أَتَى الجُمُعَةَ وبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَأْتِها في أَمْصَارِ المسلمينَ».

عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «الواجب على كُلِّ مؤمن إذا كان لنا شيعة، أنْ يَقْرَأَ في ليلةِ الجُمُعَةِ بـ(الجمعة) و(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى)، وفي صَلاةِ الظُّهْرِ بـ(الجمعة) و(المنافقين)، فإذا فَعَلَ ذلك فكأنَّما يَعْمَلُ بِعَمَلِ رسُولِ اللهِ، وكانَ جَزاؤه وثَوابُه عَلَى اللهِ الجَنَّة».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿..ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الآية:١.

* الإمام الصادق عليه السلام: «..ومتَى علِمْنا أنَّهُ عزيزٌ حكيمٌ صدَّقْنا بأنَّ أفْعالَهُ كُلَّها حِكْمَةٌ، وإنْ كانَ وجْهُها غَيْرَ مُنكشِفٍ لنا».

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ..﴾ الآية:٢.

* الإمام الصّادق عليه السلام: «كانوا يَكتبون، ولكن لَمْ يَكُنْ مَعَهُم كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلا بُعِثَ إلَيْهِم رَسُولٌ، فَنَسَبَهُم اللهُ إلى الأُمِّيّين».

** الإمام الجواد عليه السلام: «..وإنّما سُمِّي [النبيّ صلّى الله عليه وآله] الأمّيَّ لأنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، ومكّةُ مِن أمّهاتِ القُرى، وذلك قولُ الله عزَّ وَجلَّ: ﴿..لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا..﴾ الشورى:٧».

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ..﴾ الآية:٣.

* قيل للنّبيّ صلّى الله عليه وآله: مَن هؤلاء [الآخرين الذي لم يلحقوا]؟ فوضع صلّى الله عليه وآله يده على كتف سلمان، وقال: «لَوْ كَانَ الإيمانُ فِي الثُّريّا لَنالَتْهُ رِجالٌ مِنْ هَؤُلاء».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الآية:٤.

* الإمام الصّادق عليه السلام: «إنَّ مِنَ الْمَلائِكَةِ الَّذِينَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيا لَيَطَّلِعُونَ عَلَى الْوَاحِدِ والإثْنَيْنِ والثَّلاثَةِ [من المؤمنين] وهُمْ يَذْكُرُونَ فَضْلَ آلِ مُحَمَّدٍ، فَتَقُولُ [طائفة]: أمَا تَرَوْنَ هَؤُلاءِ فِي قِلَّتِهِمْ وكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ يَصِفُونَ فَضْلَ آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السّلام؟ فَتَقُولُ الطَّائِفَةُ الأُخْرَى مِنَ الْمَلائِكَةِ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾».

* قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ..﴾ الآية:٧.

* الإمام الصّادق عليه السلام: «جاءَ رَجُلٌ إلَى أبِي ذرٍّ فقال: يا أبا ذرّ، ما لَنا نكرهُ الموت؟ فقال: لأنّكم عمَّرتُمُ الدُّنيا وخرّبتُم الآخِرَة، فَتَكْرَهُون أنْ تُنقلوا مِن عُمرانٍ إلى خَراب».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ..﴾ الآية:٨.

* أمير المؤمنين عليه السلام: «أيُّها النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ فِي فِرارِه ما مِنه يَفِرُّ، والأجَلُ مَساقُ النَّفْسِ إلَيْه، والْهَرَبُ مِنْه مُوافَاتُه».

قوله تعالى: ﴿..إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ..﴾ الآية:٩.

* قيل للإمام الباقر عليه السلام: كَيْفَ سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ؟ قال: «قَالَ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَمَعَ فِيهَا خَلْقَه لِوَلايَةِ مُحَمَّدٍ ووَصِيِّه فِي الْمِيثَاقِ، فَسَمَّاه يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِجَمْعِه فِيه خَلْقَه».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ..﴾ الآية:١٠.

* النبيّ صلّى الله عليه وآله: «الآيةُ ليست لطلبِ الدُّنيا، ولكنْ عيادةُ مريضٍ، وحضورُ جنازةٍ، وزيارةُ أخٍ في الله».

قوله تعالى: ﴿..وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا..﴾ الآية:١٠.

* الإمام الصّادق عليه السلام: «قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وآله: إذَا صَلَّى أحَدُكُمُ الْمَكْتُوبَةَ وخَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلْيَقِفْ بِبابِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ لْيَقُل: اللَّهُمَّ دَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُ دَعْوَتَك، وصَلَّيْتُ مَكْتُوبَتَك، وانْتَشَرْتُ فِي أرْضِك كَمَا أمَرْتَنِي، فَأَسْألُك مِنْ فَضْلِك الْعَمَلَ بِطاعَتِك، واجْتِنَابَ سَخَطِك، والْكَفَافَ مِنَ الرِّزْقِ بِرَحْمَتِك».

قيل للإمام الباقر عليه السلام: كَيْفَ سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ؟ قال: «قَالَ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَمَعَ فيهَا خَلْقَه لِوَلايَة مُحَمَّدٍ ووَصِيِّه فِي الْمِيثَاق، فَسَمَّاه يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِجَمْعِه فِيه خَلْقَه»

﴿..وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ..﴾

التَّمحيص والمَحْق

العلاّمة الطّباطبائي قدس سره

من روائع تفسير القرآن الكريم التّفسير السُّنَني — إن صحّ التعبير - وهو اكتشاف القوانين الحاكمة على الكون والحياة بما فيها الإنسان وشؤونه كافّة، الاختياريّة منها وغير الاختياريّة، من خلال التّدبّر في آيات الكتاب العزيز.

وقد أفرد العلّامة الطباطبائي في الجزء الرابع من تفسيره (الميزان) بحثاً عن سنّة الابتلاء والامتحان الإلهيّين للإنسان من خلال ما يقدّره له من الحوادث التي تصادفه خلال مدّة حياته، وذلك استطراداً على تفسيره الآيات من ١٤٠ الى ١٤٢ من سورة آل عمران، التي يخاطب فيها الله تعالى المؤمنين إثر وقعة أُحُد وما أصابهم فيها، فيقول لهم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ..﴾ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿..وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ونحن ننقله مختصراً ببعض التّصرّف.

إنّ النوع الإنسانيّ له نوع وجود لا يتمّ أمره إلّا بسلسلة من الأفعال الاختياريّة الإراديّة التي لا تقع إلّا عن اعتقادات نظريّة وعمليّة، فلا بدّ أن يعيش تحت قوانين حقّة أو باطلة، جيّدة أو رديّة، فلا بدّ لسائق التكوين أن يهيّئ له سلسلة من الأوامر والنواهي الشرعيّة، وسلسلة أخرى من الحوادث الاجتماعيّة والفرديّة، حتّى يُخرج بتلاقيه معهما ما في قوّته إلى الفعل، فيسعد أو يشقى ويظهر ما في مكمن وجوده، وعند ذلك ينطبق على هذه الحوادث وهذا التّشريع اسم المحنة والبلاء ونحوهما.

توضيح ذلك، أنّ من لم يتّبع الدّعوة الإلهيّة واستوجب لنفسه الشقاء، فقد حقّت عليه كلمة العذاب إن بقي على تلك الحال، فكلّ ما يستقبله من الحوادث المتعلّقة بها الأوامر والنواهي الإلهيّة ويخرج بها من القوّة إلى الفعل تتمّ له بذلك فعليّة جديدة من الشقاء، وإن كان راضياً بما عنده مغروراً بما يجده فليس ذلك إلّا مكراً إلهيّاً، فإنّه يشقيهم بعين ما يحسبونه سعادة لأنفسهم، ويخيّب سعيهم في ما يظنّون فوزاً لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ آل عمران:٥٤، وقال: ﴿..وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ..﴾ فاطر:٤٣، فما يتبجّح به المغرور الجاهل بأمر الله أنّه سبق ربّه في ما أراده منه بالمخالفة والتمرّد، فإنّه يُعينه على نفسه في ما أراده، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ العنكبوت:٤.

ومن أعجب الآيات في هذا الباب قولُه تعالى: ﴿..فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا..﴾ الرعد:٤٢. فجميع هذه المماكرات والمخالفات والمظالم والتعدّيات التي تظهر من هؤلاء - بالنسبة إلى الوظائف الدينيّة، وكلّ ما يستقبلهم من حوادث الأيام، ويظهر بها منهم ما أضمروه في قلوبهم ودعتهم إلى ذلك أهواؤهم - مكرٌ إلهيّ وإملاء واستدراج، فإنّ من حقّهم على الله أن يهديهم إلى عاقبة أمرهم وخاتمته، وقد فعل، والله غالب على أمره.

وهذه الأمور بعينها إذا نُسبت إلى الشيطان كانت أقسامُ الكفر والمعاصي إغواءً منه لهم، والنزوعُ إليها دعوةً ووسوسة ونزغة ووحياً وإضلالاً، والحوادثُ الداعية وما يجري مجراها زينةً له ووسائل وحبائل وشبكات منه..

وأمّا المؤمن الذي رسخ في قلبه الإيمان، فما يظهر منه من الطاعات والعبادات، وكذا الحوادث التي تستقبله فيظهر منه عندها ذلك، ينطبق عليها مفهوم التوفيق والولاية الإلهيّة والهداية بالمعنى الأخصّ نوعَ انطباق، قال تعالى: ﴿..وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ..﴾ آل عمران:١٣، وقال: ﴿..وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران:٦٨، وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

إِلَى ٱلنُّورِ..﴾ البقرة:٢٥٧، وقال: ﴿..يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ..﴾ يونس:٩. هذا إذا نُسبت هذه الأمور إلى الله سبحانه، وأمّا إذا نُسبت إلى الملائكة فتسمّى تأييداً وتسديداً منهم، قال تعالى: ﴿..أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ..﴾ المجادلة:٢٢.

ثمّ إنّه كما أنّ الهداية العامّة تصاحب الأشياء من بَدء كونها إلى آخر أحيان وجودها ما دامت سالكة سبيل الرجوع إلى الله سبحانه، كذلك المقادير تدفعها من ورائها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ الأعلى:٣، فإنّ المقادير التي تحملها العلل والأسباب المحتفّة بوجود الشيء، هي التي تحوّل الشيء من حالٍ أولى إلى حالٍ ثانية وهلّم جرّا، فهي لا تزال تدفع الأشياء من ورائها.

قِوى الدّفع والجذب والحِفظ

وكما أنّ المقادير تدفعها من ورائها كذلك الآجال، وهي آخر ما ينتهي إليه وجود الأشياء تجذبها من أمامها، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ الأحقاف:٣، فإنّ الآية تربط الأشياء بغاياتها وهي الآجال، والشّيئان المرتبطان إذا قوي أحدهما على الآخر كان حاله بالنسبة إلى قرينه هو المسمّى جذباً، و«الآجال المسمّاة» أمور ثابتة غير متغيّرة، فهي تجذب الأشياء من أمامها.

فالأشياء محاطة بقوى إلهيّة: قوّة تدفعها، وقوّة تجذبها، وقوّة تصاحبها وتربّيها، وهي القوى الأصليّة التي يثبتها القرآن الكريم غير القوى: الحافظة، والرقباء، والقرناء، كالملائكة والشياطين وغير ذلك.

ثمّ إنّا نسمّي نوع التصرفات في الشيء إذا قُصد به مقصدٌ لا يظهر حاله بالنسبة إليه هل له صلوحه أو ليس له، بـ«الامتحان والاختبار»، فإنّك إذا جهلت حال الشيء أنّه هل يصلح لأمر كذا أو لا يصلح، أو علمت باطن أمره ولكن أردت أن يظهر منه ذلك، أوردت عليه أشياء ممّا يلائم المقصد المذكور حتى يظهر حاله بذلك هل يقبلها لنفسه أو يدفعها عن نفسه، وتسمّي ذلك امتحاناً واختباراً واستعلاماً لحاله أو ما يقاربها من الألفاظ.

وهذا المعنى بعينه ينطبق على التّصرّف الإلهيّ بما يورده من الشّرائع والحوادث الجارية على أولي الشعور والعقل من الأشياء كالإنسان، فإنّ هذه الأمور يظهر بها حال الإنسان بالنسبة إلى المقصد الذي يُدعى إليه الإنسان بالدعوة الدينية، فهي امتحانات إلهيّة. وإنّما الفرق بين الامتحان الإلهيّ وما عندنا من الامتحان أنّا لا نخلو غالباً عن الجهل بما في باطن الأشياء، فنريد بالامتحان استعلامَ حالها المجهول لنا، والله سبحانه يمتنع عليه الجهل وعنده مفاتح الغيب.

التربية العامّة الإلهيّة للإنسان امتحانٌ، لأنّه يظهر ويتعيّن بها أنّه من أهل دار الثواب أو دار العقاب

الابتلاء سُنّة إلهيّة جارية

فالتربية العامّة الإلهيّة للإنسان من جهة دعوته إلى حسن العاقبة والسعادة امتحانٌ، لأنّه يظهر ويتعيّن بها حالُ الشيّء أنّه من أهل أيّ الدارين: دار الثواب أو دار العقاب؟ ولذلك سمّى الله تعالى هذا التصرّف الإلهي من نفسه – أعني التّشريع وتوجيه الحوادث – بلاءً، وابتلاءً، وفتنة، فقال بوجه عام: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف:٧، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ الدهر:٢، وقال: ﴿..وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً..﴾ الأنبياء:٣٥، وكأنّه يريد به ما يفصّله قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ الفجر:١٥-١٦، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ..﴾ التغابن:١٥، وقال: ﴿..وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ..﴾ محمد:٤، وقال: ﴿..كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ الأعراف:١٦٣، وقال: ﴿..وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ..﴾ الأنفال:١٧، وقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ العنكبوت٢-٣، وقال في مثل إبراهيم: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ..﴾ البقرة:١٢٤، وقال في قصة ذبح إسماعيل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ الصافات:١٠٦، وقال في موسى: ﴿..وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ..﴾ طه:٤٠، إلى غير ذلك من الآيات.

والآيات كما ترى تعمّم المحنة والبلاء لجميع ما يرتبط به الإنسان من وجوده وأجزاء وجوده، كالسمع والبصر والحياة، والخارج من وجوده المرتبط به بنحوٍ كالأولاد، والأزواج، والعشيرة، والأصدقاء، والمال، والجاه، وجميع ما ينتفع به نوع انتفاع، وكذا مقابِلات هذه الأمور كالموت وسائر المصائب المتوجّهة إليه.

وبالجملة، الآيات تعُدّ كلّ ما يرتبط به الإنسان من أجزاء العالم وأحوالها فتنةً وبلاءً من الله سبحانه بالنسبة إليه. وفيها تعميم آخر من حيث الأفراد، فالكلّ مفتنون مبتلون من مؤمن أو كافر، وصالح أو طالح، ونبيّ أو من دونه، فهي سنّة جارية لا يُستثنى منها أحد.

فقد بان أنّ سنّة الامتحان سنّةٌ إلهيّة جارية، وهي سنّة عمليّة متكئة على سنّة أخرى تكوينيّة، وهي سنّة الهداية الإلهيّة العامّة من حيث تعلّقها بالمكلّفين كالإنسان وما يتقدّمها وما يتأخّر عنها، أعني القدر والأجل كما مرّ بيانه.

ومن هنا يظهر أنّها [أي السّنة] غيرُ قابلة للنّسخ، فإنّ انتساخها عينُ فساد التكوين وهو محال، ويشير إلى ذلك ما يدلّ من الآيات على كون الخلقة على الحقّ، وما يدلّ على كون البعث حقّاً، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ..﴾ الأحقاف:٣، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ المؤمنون:١١٥، إلى غيرها، فإنّ جميعها يدلّ على أنّ الخلقة بالحقّ، وليست باطلة مقطوعة عن الغاية، وإذا كانت أمامَ الأشياء غاياتٌ وآجال حقّة، ومن ورائها مقادير حقّة، ومعها هداية حقّة، فلا مناص عن تصادمها عامّة وابتلاء أرباب التكليف منها خاصّة، بأمورٍ يخرج بالاتّصال بها ما في قوّتها من الكمال والنقص والسعادة والشقاء إلى الفعل، وهذا المعنى في الإنسان المكلّف بتكليف الدّين امتحان وابتلاء.

ويظهر ممّا ذكرناه معنى «المَحق» و«التمحيص» أيضاً، فإنّ الامتحان إذا ورد على المؤمن فأوجب امتياز فضائله الكامنة من الرذائل، أو ورد على الجماعة فاقتضى امتياز المؤمنين من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، صدق عليه اسم التمحيص، وهو التمييز. وكذا إذا توالت الامتحانات الإلهيّة على الكافر والمنافق وفي ظاهرهما صفات وأحوال حسنة مغبوطة، فأوجبت تدريجاً ظهورَ ما في باطنهما من الخبائث - وكلّما ظهرت خبيثة أزالت فضيلة ظاهرية - كان ذلك مَحقاً له، أي إنفاداً تدريجيّاً لمحاسنها، قال تعالى: ﴿..وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ آل عمران:١٤٠-١٤١.

إذا ورد الامتحان على المؤمن فأوجب امتياز فضائله الكامنة من الرذائل، فذلك هو التّمحيص

إذا توالت الامتحانات الإلهيّة على الكافر والمنافق فأوجبت ظهورَ ما في باطنهما من الخبائث وإزالة الفضائل، فذلك هو المحق